علي بن أبي طالب

كرم الله وجهه

٣٥- ٤٠ هـ ٦٥٦- ٦٦١م

هو على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصى، وكانت من السابقات إلى الإسلام.

ولد بمكة قبل الهجرة بإحدى وعشرين سنة، ولما أصاب مكة جدب، وكان أبوه كثير العيال، سأل الرسول ﷺ عمه العباس أن يخففا عن أبى طالب مشقة العيش فضم العباس إليه جعفرًا وضم الرسول عليه الصلاة والسلام عليًّا فنشأ منذ صباه فى كنف الرسول وتحت رعايته ولما بعث الرسول ﷺ آمن به فكان كرم الله وجهه أول من آمن من الصبيان.

كان له فى الإسلام مواقف مشهودة وكفاه شرفا أنه بذل نفسه فداء لرسول الله ﷺ بقبوله أن ينام على فراش النبى عليه الصلاة والسلام، وهاجر بعد أن أدى الودائع التى كانت عند الرسول لأهلها، وزوجه الرسول صلوات الله عليه ابنته فاطمة فى السنة الثانية من الهجرة، فأنجب منها ولديه الحسن والحسين. وقد اتخذه النبى عليه الصلاة والسلام كاتبا له وشهد معه كل مشاهده ما عدا غزوة تبوك فإن النبى ﷺ خلفه على المدينة.

اشتهر كرم الله وجهه بالشجاعة والمروءة والوفاء والحرص على مال المسلمين إلى غير ذلك من حميد الصفات. وكان رضي الله عنه فقيهًا فرضيًّا عالمًا بتفسير القرآن شاعرًا خطيبًا، وصفه نيكلسون فقال: «كان على يعوزه حزم الحاكم ودهاؤه على رغم ما كان يمتاز به من الفضائل الكثيرة فقد كان نشيطًا ذكيًّا بعيد النظر بطلا فى الحرب مشيرًا حكيمًا وفيًّا شريف الخصومة، نبغ فى الشعر والبلاغة».

كما وصفه رجل من شعيته بما هو أهله حينما طلب منه ومعاوية ذلك إذ يقول: «كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلا ويحكم عدلا، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يعجبه من الطعام ما خشن، ومن اللباس ما قصر، وأشهد لقد رأيته فى محرابه يتململ تململ السليم، ويبكى بكاء الحزين! يقول: يا دنيا غرى غيرى إلىَّ تعرضت؟ أم إلىَّ تشوقت؟ هيهات هيهات! قد باينتك ثلاثًا لا رجعة فيها فعمرك قصير وخطرك حقير، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق» فأبكى هذا الوصف معاوية وقال: رحم الله أبا الحسن!

ولا شك أن نشأته فى بيت الرسول صلوات الله عليه كان لها أكبر الأثر فى تحليه بهذه الأوصاف الحميدة.

ولما توفى النبى ﷺ اشتغل على مع بعض أهل بيته بتجهيزه ودفنه! وكان يرى نفسه أحق بالخلافة من بعده لما له من السابقة والمواقف المشهودة فى الإسلام وقرابته من رسول الله ﷺ وزواجه من ابنته فاطمة.

وكان أبو بكر رضي الله عنه يستشيره فى مهام الأمور، وكذلك كان عمر، لما له من الفقه والدين والذكاء وغير ذلك، ولما بايع الناس عثمان لازمه فى صدر خلافته، ولكن استبطان عثمان لذوى قرباه أفسد عليه آراءه فظن الناس أن العلاقة قد توترت بينهما!

ولما قتل عثمان لم يكن انتخاب على للخلافة على الصورة التى تم بها انتخاب من سبقه من الخلفاء، فقد كان كثير من الصحابة متفرقين فى الأمصار، وكانت المدينة فى قبضة الثوار وبقيت -كما يروى الطبرى- بعد مصرع عثمان خمسة أيام وأميرها الغافقى بن حرب والثوار يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر فلا يجدونه، يأتى المصريون عليًّا فيختبئ منهم، ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه، ويطلب البصريون طلحة فيباعدهم.

ولما كان أمر المسلمين لا يستقيم دون خليفة أتى جماعة من المهاجرين والأنصار عليًّا وألحفوا عليه أن يلى أمر المسلمين، إذ لا يوجد من هو أحق

بالخلافة منه. فقبلها وهو كاره لها، وتردد بعض المهاجرين فى بيعته كسعد ابن أبى وقاص وابن عمر وتخلف بعض الأنصار كحسان بن ثابت وأبى سعيد الخدرى، كما ترك بعضهم المدينة إلى الشام ومكة دون أن يبايعوا، وعلى ذلك فقد تمت بيعته بالأغلبية دون أن ينعقد عليها الإجماع كما كان الحال فى بيعة الخلفاء الذين سبقوه ثم خطب الناس خطبة عامة، وكانت بيعته لخمس بقين من ذى الحجة سنة ٣٥هـ.

أول أعماله:

بدأ على عهده بأمرين إليهما ترجع الحروب التى وقعت فى عهده، والأحداث التى نغصت عليه حياته!

١- آوى الثوار فى جيشه بدلا من أن يقتص منهم أو يقاطعهم على الأقل؛ وبذلك جعل لخصومه سبيلا إلى اتهامه بشىء من دم عثمان.

٢- لم ينتظر حتى يبايعه أهل الأمصار، ظنًّا منه أن بيعة أهل المدينة والثوار كافية فى جعل أهل الأمصار يعترفون بخلافته، فبادر لما اتصف به من الشدة فى الحق إلى عزل ولاة عثمان الذين كانوا مثار الفتنة عليه والتولية مكانهم على رغم نصيحة بعض الصحابة ومن بينهم ابن عمه عبد الله بن عباس بالتريث حتى تهدأ الحالة وتستقر الأمور، فولى على البصرة عثمان ابن حنيف، وعلى الكوفة عمارة بن شهاب، وعلى الشام سهل بن حنيف، وعلى مصر قيس بن سعد بن عبادة، وعلى اليمن عبيد الله بن عباس، وكلهم بلغ وجهته إلا سهل بن حنيف وعمارة بن شهاب فإنهما ردا.

أضف إلى ذلك أنه قام باسترداد الإقطاعات التى كان عثمان قد منحها بعض بطانته والمقربين من أهل بيته -إلى بيت المال واتبع فى توزيع الأرزاق القواعد التى سنها عمر. وقد أحفظ ذلك من على قلوب أولئك الذين كانوا قد استفادوا فى عهد عثمان على حساب بيت مال المسلمين وزاد فى حنقهم عليه!

الخصومة بينه وبين معاوية:

لم يدخل معاوية فى بيعة على لأسباب منها:

١- أنه كان يتهم عليًّا بشىء من دم عثمان ويرى نفسه ولى دم عثمان.

٢- أن عليًّا آوى قتلة عثمان فى جيشه بدلا من أن يقيم عليهم الحد.

٣- أن عليًّا تسرع فى عـزله عن الشام، وهذا أمر شديد على رجل كـمعاوية اعتاد الحكم والرياسة زمنًا طويلا.

رأى على امتناع معاوية عن الدخـول فى بيعته واستغلاله مقـتل عثمان فى إثارة الناس عليه[1] فصـمم على قتاله، وأخـذ يحشد جـيشًا لإرغـامه على الدخول فى طاعتـه. وإنه لكذلك إذ ورد عليه ما لم يكن فى حـسبانه وهو: خروج عائشة وطلحة والزبير عليه بمكة.

موقعة الجمل!

عندما حوصر عثمان خـرجت عائشة إلى مكة حاجة، وبعد أن فرغت من حجهـا وأرادت الرجوع إلى المدينة، بلغهـا قتل عثمان وتولى عـلى، فساءها ذلك وعـادت إلى مكة، وجـعلت تخطب الناس وتحـثـهم على المطالبـة بدم عثمان، وكان أول من أجابها عبد الله بن عـامر الحضرمى (وكان أميرًا لعثمان على مكة) ثم قـدم علـيهـا فى مـكة طلـحة والزبـير من المـديـنة؛ وعبد الله ابن عامر من البصـرة، ويعلى بن أمية من اليمن، وكثر أتباعهـا، ثم اعتزموا الخروج إلى البصرة وقد عرف يوم خـروجهم بيوم النحيب لكثرة البكاء الذى كان فـيه على تفرق كلمـة المسلمين! فلما وصلوها غلبـوا عليها وخـرج منها عثمان بن حنيف عامل على كرم الله وجـهه، وكانت أم المؤمنين حفصة بنت عمـر قد عزمت على الخـروج مع عائشة، ولكن أخـاها عبد الله منعـها من

(١) كان معاوية يرقب ما تجرى به الأحداث ويعلق قميص عثمان على منبر المسجد الجامع مخضبا بدمه وإصبع زوجه نائلة معلقة فيه ليستثير أهل الشام للاقتصاص من قتلة عثمان وكان الذى حمل القميص إلى معاوية هو النعمان بن بشير الأنصارى.

ذلك. وقد أرادت أم المؤمنين أم سلمة أن تنصح عائشة بالعدول عن رأيها فكتبت إليها فى ذلك كتابًا مطولا ولكنها لم تستجب لها.

أراد طلحة والزبير استمالة زعماء البصرة فكتبا إلى كعب بن سور والأحنف بن قيس والمنذر بن ربيعة، وكانوا سادة قومهم فذكروهم بأمجادهم ورياساتهم.. وقد رد المنذر على كتابهما قائلا: «أما بعد، فإنه لم يلحقنى بأهل الخير إلا أن أكون خيرًا من أهل الشر، وإنما أوجب حق عثمان اليوم حقه بالأمس، وقد كان بين أظهركم فخذلتموه فمتى استنبطتم هذا العلم، وبدا لكم هذا الرأى؟[1].

كما حاول طلحة والزبير أيضًا استمالة عبد الله بن عمر ووعداه بالخلافة فرفض وتمسك برأيه، وكان من رأيه أن انزواء عائشة فى بيتها أكرم لها، فقال لهما: اعلما أن بيت عائشة خير لها من هودجها وأنتما المدينة خير لكما من البصرة، والذل خير لكما من السيف، ولن يقاتل عليًّا إلا من كان خيرًا منه. وأما الشورى فقد والله كانت فقدم تأخرتما. ولن يردها إلا أولئك الذين حكموا فيها فاكفيانى أنفسكما[2].

خرج على لإخماد هذه الفتنة حتى يتفرغ لقتال معاوية، وسار يريد أن يدرك عائشة ومن تبعها قبل وصولهم البصرة، إلا أن هؤلاء سبقوه ودخلوها وحاول على أن يمنع نشوب القتال فحاول الصلح ولكن السبئية من جيش على خشوا من أن يتم الصلح فتدور الدائرة عليهم فأشعلوا نار الحرب فى غفلة من الفريقين فى ليلة مظلمة ذات ريح وبرد، ووضعوا السلاح فى جند البصرة ففزع هؤلاء إلى سلاحهم وهاجموا جيش على، وظن كل من الفريقين بالآخر الغدر والخيانة، فوقعت واقعة الجمل بعد أن كاد الخلاف ينحسم صلحًا!

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة.

(٢) المصدر السابق.

كـانت عائشـة فى هودج على جملـها فى أثناء الحـرب (ومن ثم سمـيت موقعة الجمل) وكانت المعركة شديدة، واستـمر القتال سبعة أيام وانتصر على بعد أن عقر جمل عائشة، وقتل طلحة والزبير كما قتل من الفريقين عدد كبير بلغت عدته كـما قيل عـشرة آلاف. ودخل على البـصرة وبقيت عـائشة فى هودجها إلى الليل وأدخلها أخوها محمد بن أبى بكر إلى البصرة.

ولما أرادت عائشـة الرجوع إلى المدينة جـهزها على بكل مـا تحتـاج إليه، وودعها بنفسه وسيـر معها أولاده مسيرة يوم، وشيعهـا رجاله وكان خروجها فى غرة رجب سنة ٣٦هـ. فسارت إلى مكة، وحـجت ثم ذهبت إلى المدينة واستقرت بها.

قالت عائشـة لمشيعيـها عند رحيلها: «إنه والله مـا كان بينى وبين على فى القـدم إلا ما يكون بين المرأة وأحـمـائها، وإنه عندى -عـلى معـتتـبى- من الأخيار» فقال على: «أيها الناس صدقت والله وبرت، وإنه ما كان بينى وبينها إلا ذلك، وإنها لزوجة نبيكم ﷺ فى الدنيا والآخرة».

العاصمة الثانية للإسلام:

ولى علىٌّ على البصـرة عبد الله بن عـباس وجعل على خـراجـها زياد ابن أبيه، وانتـقل هو إلى الكوفة وجعلـها مقراً لخـلافته لأنهـا أقرب إلى الشـام ولأنها أكـبـر بلد فى أغنى إقليم إسـلامى وهو العـراق. هذا إلى العداوة المستكنة التى كانت بين أهل العراق وأهل الشام بوجه عام!

●●●

موقعة صفين!

موازنة بين كفة على وكفة معاوية.

من الواضح منذ البداية أن كفة معاوية كانت أرجح للأسباب الآتية:

١- إن أهل الشام كانوا من خاصة العرب، وقد ألفوا النظام والخضوع للسلطان إلى حد ما فى حين أن أهل العراق كانوا من أهل البادية أعرابًا يميلون إلى الحرية المطلقة التى تشبه الفوضى.

٢- إن مصر قد عزل عنها عاملها قيس بن سعد بمكيدة من معاوية وولى عليها محمد بن أبى بكر وهو ضعيف إذا قورن بقيس بن سعد، وبذلك أمن معاوية جانب مصر التى يجب أن يكون فيها جيش قوى وحاكم قادر على مناهضة معاوية.

٣- إن معاوية قد اجتذب إلى جانبه عمرو بن العاص، وهو المعروف بالدهاء والحيلة، فانضمامه إلى معاوية أفاده كثيرًا كما سنرى.

بعد أن عرفنا قوة كل من على ومعاوية ووازنا بينهما نقول:

إن عليًّا أرسل إلى معاوية جرير بن عبد الله البجلى يدعوه لأن يدخل فيما دخل فيه الناس من البيعة له فأبى، وكان معاوية مصرًّا على قتال على بعد أن أوغر عليه صدور جند الشام لإيوائه قتلة عثمان فى جيشه.

وسار على من الكوفة فى تسعين ألفًا لخمس بقين من شوال سنة ٣٦هـ وسار معاوية من الشام فى خمسة وثمانين ألفًا، وعسكر الجمعان فى سهل صفين. ثم بعث على رسله إلى معاوية محاولا الصلح فلم يُجْدِ ذلك. وبعد قتال متقطع طيلة ذى الحجة سنة ٣٦هـ تهادن الفريقان إلى آخر المحرم سنة ٣٧هـ فلما استهل صفر ولم يحسم النزاع عادت الحرب بينهما من جديد واستمرت عدة أيام ورجحت كفة على وكادت الدائرة تدور على أهل الشام

لولا حيلة عمرو بن العـاص؛ إذ أشار على أهل الشام برفع المصاحف وتحكيم القرآن بينهم وبين أهل العراق، وحـاول على عبثا أن يبين لجنده أنهـا خديعة فمـا كان جواب الكثـير من جنده إلا أن قالـوا أجب إلى كتاب الله فـأجابهم على مكرها وقـبل التحكيم. ثم أرسل إلى معـاوية الأشعث بن قـيس يسأله عما يريد فـقال معاوية: «نرجع نحن وأنتم إلى مـا أمر الله فى كتابه تبـعثون منكم رجلا ترضونه ونبعث منا رجلا ثم نأخذ عليـهما أن يعملا بما فى كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفـقا عليه» فعاد الأشعث وأخبر عليـا فاختار أهل العراق أبا موسى الأشـعرى على كره من على، واختـار أهل الـشام عـمرو ابن العاص، وكـتب الفريقان عـقد التحكيم واتفقـا على اجتمـاع الحكمين فى دومة الجندل (مكان بين العراق والشام) واجتـمع الحكمان فى شهر رمضان سنة ٣٨هـ وفى اليوم المشهود الذى اجـتمع فيه الحكمان تجلى دهاء عمـرو فاستدرج أبا موسى حتى خلع عليا فى حين أقر عمرو خلع على وثبت صاحبه معاوية!

هكذا انتهت موقعة صفين التى قتل فـيها من المسلمين ما يقرب من تسعين ألفًا! وهو عدد لم يقـتل مثله ولا قريب منه فى جميع المعارك الإسـلامية من لدن رسول الله ﷺ إلى وقوع هذه المعركة!!

ظهور الخوارج!

بعـد عقـد التـحكيم عـاد معـاوية وأصـحابه إلى دمـشق وأخـذ على فى الانصراف، ولكن شتان بين عودة أهل الشام وأهل العراق: فأهل الشام رجعوا متحـدين متفقى الكلمة؛ أمـا أهل العراق فعادوا وقـد وقع الخلاف بينهم، فإن الذين كـانوا بالأمس ينادون بالتـحكيم قد أصـبحـوا ضـد التحكيم، وكـانوا يعتقدون أن بيعة على شرعية فقبوله التحكيم نقض لهذه البيعة الشرعية! وانشق جماعة منهم على الجـيش عدتها اثنا عشر ألفا، ورفـضوا دخول الكوفة ونزلوا حروراء بظاهر الـكوفة وأرسل إليهم علـى رسلا ليحـاجوهم حتـى يعدلوا عن رأيهم ثم ذهب إليهم وحاجهم واستنظرهم حتى يصدر حكم الحكمين. وهؤلاء هم الخوارج الذين كان لهم شأن فى التاريخ الإسلامى.

يوم النهروان!

بعد أن انتهى التحكيم أخذ على يستعد لقتال معاوية من جديد، ولما اعتزم المسير إلى الشام جاءته الأخبار بأن الخوارج قد ساروا نحو المدائن وقد عابوا عليه قبوله التحكيم وارتكبوا كثيراً من الكبائر، وكانوا يعتقدون أنهم وحدهم المسلمون حقّاً، وأن جمهور المسلمين قد ارتدوا إلى الكفر واستحلوا أموالهم فسار إليهم على فاستصلح منهم طائفة، وصرف طائفة أخرى عن القتال، وقاتل من بقى فأتى عليهم أو كاد، ولم يقتل من أصحاب على سوى سبعة نفر.

رجحان كفة معاوية:

أراد على -بعد أن فرغ من الخوارج- السير لقتال أهل الشام فاستمهله رجاله ريثما يستجمون ويستعدون غير أنهم أخذوا يتسللون من المعسكر فلا يعودون، وجعل على يستفزهم ويذمرهم بالخطب البليغة فلم يسمعوا له. وبينما كان يلقى الشدائد من تثاقلهم وتسللهم كان معاوية قد تمكن من الاستيلاء على مصر على يد عمرو بن العاص سنة ٣٨هـ فحزن علىٌّ على ضياعها، وقتل محمد بن أبى بكر عامله عليها، ولم يقف معاوية عند هذا الحد بل أخذ يعد البعوث إلى أطراف البلاد الخاضعة لعلى للاستيلاء عليها فاستولى على الحجاز واليمن فازداد معاوية بذلك قوة على قوته.

مقتل على!

أدرك أصحاب على الخطر عندما ذهب معاوية إلى بيت المقدس ودعا لنفسه بالخلافة، فكونوا جيشًا بلغ أربعين ألف مقاتل واستعدوا لقتال معاوية، وفى هذه الأثناء حدث أن ثلاثة من فتاك الخوارج وهم: عبد الرحمن بن ملجم، والبرك بن عبد الله، وعمرو بن بكر التميمى اجتمعوا وتذاكروا أمر الناس، وترحموا على أهل النهروان واتفقوا فيما بينهم على أن يقتل ابن ملجم على ابن أبى طالب والبرك معاوية، وعمرو بن بكر عمرو بن العاص، وتوجه كل واحد منهم قاصداً صاحبه: أما معاوية وعمرو فنجوا، وأما على فأصابه ابن ملجم وهو خارج يدعو إلى صلاة الصبح بمسجد الكوفة، وكان مقتله فى يوم الجمعة ١٧ من رمضان سنة ٤٠هـ!

الحسن بن على

بعد مقتل على كرم الله وجهه بايع أهل العراق ابنه الحسن ولكن الحسن رضي الله عنه لم تسترح نفسه لذلك، فقد شاهد بنفسه -وحذره أبوه- أن أهل العراق يقولون ما لا يفعلون، وأنهم خذلوا أباه من قبل ورأى أنه لا قبل له بمعاوية وجنده، ورأى ما نزل بالمسلمين من فُرقة وما فعله الروم من الإغارة على أملاك المسلمين، منتهزين فرصة الحرب الأهلية التى فرقت كلمة المسلمين! ففضل رضوان الله عليه أن يحقن دماء المسلمين، فسلم لمعاوية فأرسل إليه معاوية كتابًا مختومًا من أسفله ليشترط لنفسه ما يريد، فأغدق عليه معاوية المال، والضياع.

وكان تنازل الحسن لمعاوية فى ربيع الأول سنة ٤١هـ، وبذلك هدأت أحوال المسلمين، وسموا هذا العام عام الجماعة، لاجتماع الناس فيه على إمام واحد.

وفى صحيح البخارى من حديث أبى بكرة رضي الله عنه، عن النبى ﷺ: «إن ابنى هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».

وقد استجاب الله لنبيه ﷺ وأصلح بابنه هذا الإصلاح العظيم.

●●●

خاتمة

فى المدينة الإسلامية زمن الخلفاء الراشدين[1]

كان العرب قبل الإسلام يعيشون عيشة قبلية، فلما جاء الإسلام أوجد من القبائل العربية المتفرقة فى عشر سنوات خير أمة أخرجت للناس. وقامت الدولة الإسلامية وازدهرت ونعم المسلمون بما جاء به الإسلام، من العدل والمساواة والمحبة والإخاء والوفاء بالعهد، وما إلى ذلك من مبادئ الإسلام السامية التى نزل بها القرآن الكريم.

وفى عهد الخلفاء الراشدين انساحت الجيوش الإسلامية فى ملك الفرس والروم، فبسطت سلطان الإسلام على ملك الفرس، وانتزعت من الروم الشام ومصر وإفريقية، وصار للإسلام دولة لم تصل إليها أمة سبقتها، ومدنية لم يعرفها العالم من قبل.

وأهم مظاهر المدنية فى زمن الخلفاء هى:

١- الخلافة وقد تكلمنا فيما سبق بالتفصيل، ولكنا نوجز القول عنها هنا فنقول:

إنها رياسة دنيوية أساسها الدين فكانت طاعة الخليفة واجبة شرعا فيما يأمر به وينهى عنه ما لم يخالف الشريعة؛ وكان الخليفة يستشير كبار الصحابة فيما يعرض من الأمور المهمة وأكثر ما كان ذلك فى المسجد النبوى، وكان أكثر الخلفاء اهتمامًا بالشورى عمر بن الخطاب، فقد كانت له شورى خاصة من أعلام الصحابة، وشورى عامة من كل من له رأى من المسلمين، وكان الخليفة يؤم المسلمين فى الصلوات، ويخطبهم فى الجمعة والمهمات وليس بينه وبين المسلمين حجاب، وهو فى معيشته كسائر الناس. وقد أثرت عن زهد الخلفاء وورعهم أخبار جرت مجرى النوادر.

---

(١) راجع كتابنا تاريخ الحضارة الإسلامية، مذكرات المرحوم عبد الحميد العبادى.

السياسة العامة فى ذلك العهد:

نتبين فى عهد الخلفاء الراشدين سياسة عامة وأخرى خاصة: أما العامة فكان الخلفاء جميعًا فيها سواء، وهى ترمى إلى نشر الإسلام وحمل الناس على العمل بما جاء به، وكان الخلفاء أنفسهم هم القدوة فى ذلك للرعية، وأما الخاصة فعرفت عن رجل الدولة عمر بن الخطاب وكانت ترمى إلى توحيد كلمة العرب والاحتفاظ بالروح العربية الحربية، وألا تغرهم الحياة الدنيا وزينتها.

وقد استتبع تنفيذ تلك السياسة أمورًا منها:

١- أنه أخرج غير المسلمين من جزيرة العرب تنفيذًا لوصية النبى ﷺ: لا يجتمع بجزيرة العرب دينان.

٢- منع العرب من التوسع فى الفتح حتى يستطيع ضبط أمور المسلمين كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

٣- منع قريشًا من الخروج من الحجاز إلى الأقطار المفتوحة خشية تفرق الكلمة ووقوع الفتنة.

٤- منع العرب من الاستيلاء على الأراضى التى فتحت عنوة وأبقاها فى يد أصحابها على أن يؤدى خراجها.

غير أن هذه السياسة أهملت بعد موت عمر، فإن عثمان أذن لقريش بالخروج إلى البلاد المفتوحة وآثر أقرباءه بوظائف الدولة وأقطعهم الأراضى التى كانت ملكا للدولة. وقد رأينا أثر ذلك فيما سبق.

ولما جاء على أراد أن يسير على نهج سياسة عمر، ولكنه لم يستطع لقصر مدته وكثرة الفتن التى وقعت فى عهده!

إدارة الحكومة:

بعد أن دانت جزيرة العرب للنبى ﷺ، ولى على كل إقليم ومصر أميرًا واتبع عمر بن الخطاب تلك الخطة، فقسم الدولة الإسلامية إلى أقسام إدارية

كبرى، وجعل على كلٍّ أميرًا ذا اختصاص معين ووضع نظام القضاء، وحدد الصلة بين الدولة والبلاد المفتوحة بتحديد الجزية والخراج الواجبين على أهل الذمة. وأما القبائل فى البادية فكان شيوخها فى أغلب الأحوال هم الذين يجبون صدقاتها، والأمصار كان عليها عمال يقيمون بها.

وضع الدواوين:

الديوان موضوع لحفظ ما يتعلق بحقوق الدولة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال، والديوان كلمة فارسية الأصل معناها الدفتر أو السجل. ويطلق فى الإسلام على سجلات الحكومة، ثم أطلق على أمكنة هذه السجلات مجازًا.

ولم يكن فى عهد رسول الله ﷺ وعهد أبى بكر رضي الله عنه ديوان لإحصاء الأموال وضبط العطاء، فلما كان زمن عمر رضي الله عنه كثر المال واتسعت البلاد، فدونت الدواوين لوجود الدواعى، فكان رضي الله عنه أول من وضع الديوان فى الدولة الإسلامية.

ويروون فى سبب وضعه أن أبا هريرة رضي الله عنه قدم بمال من البحرين فقال له عمر: ماذا جئت به؟ فقال: خمسمائة ألف درهم، فاستكثره عمر، فقال له: أتدرى ما تقول؟ قال نعم، مائة ألف خمس مرات، فقال عمر: أطيب هو؟ قال: لا أعلم إلا ذاك، فصعد عمر المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس، قد جاءنا مال كثير فإن شئتم كِلْنا لكم كيلا، وإن شئتم عددنا لكم عدا، فقام إليه رجل فقال يا أمير المؤمنين، قد رأيت الأعاجم يدونون ديوانًا لهم فدوِّن أنت لنا ديوانا» فأخذ عمر بهذا الرأى وأمر بوضع الديوان.

وكان له ديوانان: ديوان الجند، وديوان الجباية، وتحصر فى الأول أسماء الجند على حسب القبائل ومقدار أعطياتهم، ويبين فى الثانى خراج الأقاليم الإسلامية.

الكتابة:

لم يكن يعرف القراءة والكتابة من العرب حين ظهور الإسلام إلا القليل الذى لا يتجاوز بضعة عشر رجلا، من بينهم عمر، وعثمان وعلى، وأبو عبيدة بن الجراح.

فلما ظهر الإسلام وقامت دولته فى المدينة، اتخذ النبى ﷺ كتابًا له، وكان عثمان وعلى وأبى بن كعب وزيد بن ثابت، ممن يكتبون للنبى عليه الصلاة والسلام القرآن الكريم والرسائل التى كان يرسلها إلى الملوك والأمراء، وبعضهم كان يكتب له حوائجه[1].

ولما تولى أبو بكر رضي الله عنه الخلافة اتخذ عثمان كاتبًا له، وغدت الكتابة منصبًا ذا أهمية للدولة، وحين تولى عمر الخلافة كتب له زيد بن ثابت وغيره، وحين اتسعت الفتوحات الإسلامية. ودونت الدواوين عين رضي الله عنه كتابًا لكل ولاية يكتب فى ديوانها. واتخذ عثمان رضي الله عنه مروان بن الحكم كاتبًا له، كما اتخذ على كرم الله وجهه عبد الله بن أبى رافع مولى رسول الله ﷺ كاتبًا له.

بيت المال:

هو المكان الذى كانت تحتفظ فيه أموال الدولة سواء أكان فى المدينة أو فى الأقاليم ولبيت المال موارد، هى: الصدقة والغنيمة والفيء.

الصدقة:

الصدقة أو الزكاة: ما يؤخذ من أغنياء المسلمين ليرد على فقرائهم ومصادرها: السوائم (الإبل والبقر والغنم) والفضة والذهب، وعروض التجارة، والزروع والثمار. وقد بينت الشريعة لكل ذلك نصابًا معينًا لا تجب الزكاة فيما دونه، وقدرًا معينًا لا يؤخذ فوقه. ومصرفها ما ذكر فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ [التوبة: ٦٠].

---

(١) راجع التنبيه والإشراف للمسعودى ص ٢٤٥ صبح الأعشى (١/ ٩٢).

الغنيمة:

ما يغنمه المسلمون من أموال الكفار بالقتال والجهاد فى سبيل الله وهى أنواع: أسرى، وسبى، وأموال منفولة، والواجب فى الغنم تخميسه وصرف الخمس إلى من ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ...**﴾ [الأنفال: ٤١] الآية، وقسمة الأربعة الأخماس الباقية بين القائمين.

الفىء:

كل مال وصل من المشركين عفوًا من غير قتال، ولا إيجاف خيل ولا ركاب ويدخل فيه الجزية والخراج والأعشار وغيرها.

الجزية:

ما كان يوضع على رءوس أهل الذمة من الرجال القادرين دون غيرهم، وكانوا يقدرونها على حسب أحوال أهل الذمة غِنًى وفقرًا لكن لا تزيد على ثمانية وأربعين درهمًا فى السنة، ولا تنقص عن اثنى عشر درهما. وكانت تؤدى منجمة. وتسقط بالإسلام، وهى فى نظير حمايتهم والدفاع عنهم فدافعها لا يقتل ولا يدعى إلى قتال، وهو آمن على نفسه وماله.

الخراج:

وهو ما كان يوضع على الأرض التى فتحت عنوة ثم تركت بأيدى أصحابها، على أن يؤدوا عنها الخراج. وأما الأرض التى أسلم أهلها عليها وهى من أرض العرب، كالمدينة واليمن أو ملكها المسلمون عنوة وكان أهلها لا تقبل منهم الجزية كنصارى العرب فهى أرض عشرية.

العشور:

هى ما يقابل الرسوم الجمركية فى زماننا، وأصل ذلك فى الإسلام أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بلغه أن تجارًا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر فكتب إلى أبى موسى الأشعرى وهو على البصرة: أن

خذ من كل تاجر يـمر بك من كل مائتى درهم خمـسة دراهم، وخذ من كل تاجر من تجار العـهد (معنى أهل الذمة) من كل عشـرين درهمًا درهمًا، ومن تجار الحرب من كل عشرة دراهم درهمًا.

مصارف بيت المال:

ينفق من بيت المال فى مصالح المسلمين ومرافقـهم العامة ما تقضى الحاجة إلى إنفاقه، وأهم هذه المصالح.

١- أرزاق القضاة والولاة والعمال.

٢- أعطيات الجند.

٣- المنافع العامة مثل كرى الأنهار وحفر الآبار.

وكانت نفقات كل إقليم من أرزاق الجند وشق الترع وإقامة الجسور وما إلى ذلك، تؤخـذ من خراج كل إقليم ومـا يتبـقى يرسل إلى المدينة فيـوزع على المسلمين، وهذا هو العطاء.

وكان أبو بـكر يسوى بين الناس فى العطاء، ولكن عـمر فـاضل بينهم على حسب سـابقتهم فى الإسلام وبلائهم فى نصـرة الدين أو القرابة من رسـول الله ﷺ، ففـرض لكل واحـدة من أزواج النبى ﷺ عشـرة آلاف درهم، وفرض للعباس سبعة آلاف درهم، وفرض لكل من شهد بدرًا من المهاجرين الأولين خمسة آلاف درهم، وفرض لنفسه معهم خمسة آلاف، وفرض لكل من شهد بدرًا من الأنـصار، أربعة آلاف درهم، وفرض لكل من هاجر قبل الفـتح ثلاثة آلاف درهم، ولمن أسلم بعد الفتح ألفى درهم ثم فرض للناس على منازلهم وقراءتهم القرآن وجهادهم.

القضاء:

لما تولى أبو بكر رضي الله عنه الخلافـة أسند القضـاء إلى عمـر بن الخطاب، فظل سنة أو أكثر لا يختلف إليه أحد على أنه لم يلقب بلقب قاض[1].

(١) الخطط للمقريزى (١/ ١٠٣)، الخراج لأبى يوسف ص ١٣٥.

وفى عهد عمر لما انتشر الإسلام واتسعت رقعة البلاد الإسلامية واختلط المسلمون بغيرهم وكثرت مهام الخليفة استدعى ذلك تولية قضاة مستقلين عن الأمراء: فولى أبا الدرداء معه قضاء المدينة، وولى شريحًا قضاء البصرة، وأبا موسى الأشعرى قضاء الكوفة، ووضع لهم دستورًا يهتدون به (كتاب القضاء إلى أبى موسى الأشعرى[1]) فكان ﷺ أول من ولى قضاة مستقلين فى الولايات الإسلامية وفوضهم فيه.

وكتاب عمر إلى أبى موسى يعتبر إلى وقتنا الحاضر من أسس القضاة ومن أهم نظمه وأصوله، فقد جمع فيه عمر جمل الأحكام، وجعل الناس بعده يتخذونه إماما، ولا يجد محق عنه معدلا، ولا ظالم عن حدوده محيصًا.

وكان القضاء فى زمن الخلفاء مستقلا ذا منزلة رفيعة، وكان يراعى فى اختيار القضاة الصفات التى تحقق العدالة والمساواة: من العلم والتقوى والعدل والعفة وما يتصل بذلك.

وكان فى كل مصر جماعة اشتهروا بالفقه واستنباط الأحكام، فكانوا يستفتونهم إذا أشكل عليهم الأمر. ولم يكن تعيين القضاة مانعًا الخلفاء من نظر أية قضية ترفع إليهم.

الجيش:

لما جاء الإسلام كان كل مسلم جنديا له من حبه لدينه ما يبعثه على المبادرة إلى الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله.

ولما ولى عمر الخلافة عنى بأمر الجند، فأنشأ لهم ديوانا خاصًّا للإشراف على شئونهم ومختلف أمورهم، وإليه يرجع الفضل فى إقامة الحصون والمعسكرات الدائمة لإراحة الجند، فبنيت الكوفة والبصرة والفسطاط، كما جعل لهم الثكنات الحربية فى المدن الشامية الكبيرة، وذلك ما يعبر عنه بأجناد الشام.

وكان الجيش يتألف من أهل المدن ومن القبائل، وكان قسمين: فرسان ورجالة: فأما الفرسان فكان سلاحهم الترس والسيف والرمح، وأما

(١) راجع نص هذا الكتاب فى العقد الفريد (١/ ١٠٠)، الأحكام السلطانية للماوردى ص ٥٩ وغيرهما.

الرجالة فكان سلاحهم إما كسلاح الفرسان، وإما الترس والقوس والسهم، وكانت فرق الرماة أهم فرق الرجالة. وكان الجيش إذا زحف بنظام عسكرى، فيكون مؤلفًا من قلب وميمنة وميسرة ومقدمة وساقة. وكانوا يجعلون الخيل عادة فى المجنبتين، وكانت الفرسان تزحف صفوفًا: أصحاب الرماح أولا ثم الرماة، وكانوا لا يغفلون عن حفظ خطوط رجعتهم إذا ساروا، والمفاجأة والبيات إذا نزلوا.

الشرطة:

الشرطة: الجند الذين يعتمد عليهم الخليفة أو الوالى فى حفظ الأمن والقبض على المفسدين، وأول من استن نظام العسس عمر بن الخطاب وكان يعس بالمدينة يحرس الناس، وفى عهد على كرم الله وجهه نظمت الشرطة وأطلق على رئيسها صاحب الشرطة.

الحياة الاجتماعية:

كانت معيشة المسلمين فى أيام الرسول صلوات الله عليه، وفى أيام أبى بكر وعمر، غاية فى السذاجة، ولكنها من أواخر أيام عمر أخذ يظهر فيها أثر الترف للأموال الكثيرة التى أخذت تتدفق على المسلمين وقويت هذه الظاهرة أيام عثمان، إذ أخذ كثير من رجالات قريش يبنون الدور الفخمة، وقد هدم الخليفة عثمان المسجد النبوى الذى كان مبنيًّا باللبن وبناه ثانية بالحجر والرخام.

وكان أهل المدينة أهل جد وعمل، وكثيرًا ما كانوا يحضرون مجالس العلم التى كان يعقدها كبار الصحابة كعلى بن أبى طالب وعبد الله بن عباس، رضوان الله عليهم أجمعين.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين،

أبو زيد شلبى
الأستاذ بكلية أصول الدين